

العولمة وأثرها على الهوية الإسلامية

Globalization and its impact on the Islamic identity

الدكتور عبد الباقي غفور

أستاذ الأنثروبولوجيا، كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان-

ghaffour@yahoo.fr

الملخص:

إنَّ العولمة هي اجتياح الشمال للجنوب، اجتياح الحضارة الغربية ممثلة في النموذج الأمريكي للحضارات الأخرى، وهي التطبيق العملي لشعار " نهاية التاريخ " الذي أرادوا به الادعاء بأنَّ النموذج الغربي الرأسمالي هو " القدر الأبدي " للبشرية جمعاء، وهو تطبيق يستخدم في عملية الاجتياح أسلوب " صراع الحضارات " الذي يعني في توازن القوى الحالي أن تصرع الحضارة الغربية ما عداها من الحضارات.

فبخلاف العولمة التي هي فرض قيم وحضارة خاصة، نجد الإسلام من خلال هويته وقيمه، يتجه نحو العالمية منذ نزوله، وبحث على التعايش والسلم، وعایش فعلا تاريخه مختلف الديانات وتسامح معها تسامحا واضحا بشهادة المؤرخين المنصفين. كما أنه مؤهل بتعاليمه الأخلاقية أن يشارك في وضع أخلاق جديدة لهذه العولمة المنفلتة لحد الآن، وهو يعترف بالقيم المشتركة بين الحضارات.

من خلال هذه الورقة البحثية نحاول الإجابة عن بعض الأسئلة مثل: ما هي العولمة؟ وما هي الهوية الإسلامية؟ وما هي آثار العولمة على الهوية الإسلامية؟ وما هي سبل التعامل معها للحفاظ على هويتنا الإسلامية؟

التحليل:

شهدت العشرية الأخيرة من الألفية الثانية تغيرات عالمية كبرى، شملت المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وقد مهدت هذه التغيرات لظهور العولمة، التي تعني تعميم نمط من الأنماط التي تخص بلدا أو جماعة وجعله يشمل العالم كله، أي نقله من حيز المحدود إلى آفاق اللامحدود. إنها تعني إرغام العالم ليكون عالما واحدا موجها توجيهها واحدا في إطار حضارة واحدة وتجاوز الحدود الجغرافية المعروفة. إنها اندماج أسواق العالم ضمن إطار حرية السوق، وبالتالي خضوع العالم لقوى السوق العالمية وهيمنة الشركات الدولية الكبرى، مما يؤدي إلى اختراق الحدود والقومية وانحسار كبير في سيادة الدولة. (الجابري، 1997، ص: 36).

ولقد أصبح مفهوم العولمة من أكثر المفاهيم تداولاً من قبل الهيئات الأكاديمية ومراكز البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، والعلوم السياسية، والدراسات الاستراتيجية خلال حقبة التسعينات من القرن الماضي، والسنوات الأولى من هذا القرن.

ويعتبر اختيار صور برلين، وتفكك الاتحاد السوفياتي، وسقوط النظام الاشتراكي الذي كان يتقاسم الهيمنة مع الولايات المتحدة الأمريكية انتصاراً للنظام الرأسمالي الليبرالي، وظهور ما يسمى بالنظام العالمي الجديد الذي يدعو إلى الرأسمالية، وتبني أيديولوجية النظام العالمي الاستعماري - تحت شعار العولمة - والتي تمثل مرحلة متطورة للهيمنة الرأسمالية الغربية على العالم، باعتبارها أعلى صورة - بزعمهم - وصل إليها الفكر الإنساني، وأنتجه العقل الحديث حتى عدّه المفكر الأمريكي ذو الأصل الياباني "فرنسيس فوكوياما" أنه نهاية التاريخ، كونه يرى أن ثقافة أمريكا هي النموذج الأعلى الذي يجب أن يحتذى به، بل يراها النموذج الخاتم، ونهاية الرقي الإنساني، ونهاية الثقافة والحضارة. وفي هذا المعنى كتب كتابه "نهاية التاريخ وخاتم البشر". (بشير إمام، 2000، ص: 159).

أسهمت وتسهم العولمة في رسم ملامح الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عالم تذوب فيه الخصوصيات، والهويات الوطنية، والحدود، تحت دواعي ثورة المعلوماتية وتحرير قوى السوق ووقف تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، وما يترتب على ذلك من تفاقم التفاوت في توزيع الدخول والثروات، وهروب الرّساميل عبر شبكات الحاسوب، وحجب الإنفاق الحكومي عن الخدمات والتأمينات الاجتماعية، مما يؤدي إلى شلل وتعطيل مؤسسات الرعاية الاجتماعية وشيوع البطالة وتفاقم حدة الفقر.

إنّها كما يقول روجيه غارودي: "هي نظام يمكن الأقوياء من فرض الدكتاتوريات اللاإنسانية التي تسمح بافتراس المستضعفين تحت ذريعة التبادل الحر وحرية السوق." (غارودي، 1998، ص: 17).

إنّ العولمة كما يراها صاحبها "فخ العولمة" تعني: "زيادة البطالة، انخفاض الأجور، تدهور مستوى المعيشة، تقليص الخدمات الاجتماعية التي توفرها الدولة، إطلاق آليات السوق، ابتعاد الحكومات عن التدخل في النشاط الاقتصادي واقتصار دورها على حراسة النظام، وتفاقم التفاوت في توزيع الثروات بين المواطنين، وتعني إيصال البشرية إلى نمط واحد في التغيير والأكل والملبس والعادات والتقاليد." (مارتن وشومان، 1966، ص: 55).

إنّ مصطلح العولمة ذاته شاهد على أنّها قسر وفقر لا حرية فيها ولا اختيار. فهو مثل غيره من المصطلحات التي أتت وتأتى على "وزنه الصرفي" -فعلة- من مثل "القولبة" - أي القسر والقهر على قالب غير ملائم - و "الفرنسة" - أي القهر على أن يصبح غير الفرنسيين فرنسيين - ومثل ذلك "الأمركة" - جعل غير الأمريكيين أمريكيين - وكذلك "الفبكة"، إلى آخر ما يأتي على هذا "الوزن الصرفي" من مصطلحات.

الهوية الإسلامية وأهميتها:

أما الهوية: فهي مأخوذة من "هو". بمعنى أنّها جوهر الشيء وحقيقته، لذا نجد أنّ الجرجاني في كتابه "التعريفات" يقول عنها: "بأنّها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتغال النواة على الشجرة في الغيب." (الجرجاني، 1987، ص: 314).

فهوية الإنسان أو الثقافة أو الحضارة، هي جوهرها وحقيقتها، ولما كان في كل شيء من الأشياء - إنسانا أو ثقافة أو حضارة - الثوابت والمتغيرات، فإنّ هوية الشيء هي ثوابته، التي تتجدّد ولا تتغيّر، تتجلى وتفصح عن ذاتها، دون أن تخلي مكانها لنقيضها، طالما بقيت الذات على قيد الحياة. إنّها كالبصمة بالنسبة للإنسان، يتميز بها عن غيره. (عمارة، 1999، ص: 6).

إنّ هوية أمة هي صفاتها التي تميّزها عن باقي الأمم لتعبّر عن شخصيتها الحضارية، فالهوية بمعناها اللغوي والفلسفي تعني الامتياز عن الغير، وخصوصية الذات، وما يميّز به الفرد أو المجتمع عن الأغيار من خصائص ومميزات ومن قيم ومقومات. وهي بمعنى آخر الشخصية المستقلة التي تميّز فردا أو جماعة عن غيرها. والمسلم اكتسب هويته من السمات المشتركة التي وُجدت بين المسلمين عامة وميّرهم عن غيرهم من الناس حتى أصبحوا

يتملكون بناء حضاريا قويا فاعلا في المجتمع الإنساني، فكانت الحضارة الإسلامية وما امتلكته من خصائص ومقومات من أبرز الفواعل الرئيسية في مسيرة الحياة الإنسانية، حيث تركت بصماتها التي لا تمحى من على وجه التاريخ الإنساني.

وإذا ما تساءلنا عن الهوية الإسلامية، فإن الإسلام هو جوهرها وحقيقتها وثوابتها. فهو الذي طبع ويطبع، وصبغ ويصبغ ثقافتها بطابعه وصبغته. فعاداتها وتقاليدها وأعرافها وآدابها وفنونها وسائر علومها الإنسانية والاجتماعية، وفلسفة علومها الطبيعية والتجريبية، ونظرتها للكون وللذات وللآخر وتصوراتها لمكانة الإنسان في هذا الكون، من أين أتى؟ وإلى أين ينتهي؟ وحكمة هذا الوجود ونهايته؟ ومعايير المقبول والمرفوض، والحلال والحرام في المسيرة الحياتية لإنسانيتنا. كل ذلك وما مثله، قد انطبع بطابع الإسلام واصطبغ بصبغته.

والهوية دائما جماع ثلاثة عناصر: العقيدة التي توفر رؤية للوجود، واللسان الذي يجري التعبير به، والتراث الثقافي الطويل المدى. (المنير، 2000، ص: 146).

فاللغة هي التي تلي الدين كعامل مميز لثقافة شعب ما عن ثقافة شعب آخر، ثم يأتي التاريخ وعناصر الثقافة المختلفة في صنع الهوية. وأهم عناصر الهوية الدين، حيث في الحروب تذوب الهويات متعددة العناصر، وتصبح الهوية الأكثر معنى بالنسبة للصراع هي السائدة، وغالبا ما تتحدد هذه الهوية دائما بالدين. (هنتجتون، 1999، ص: 103).

وإذا كانت هذه الهوية وهذه أهميتها لكل أحد، فإن الهوية عند المسلمين أكثر أهمية، والإسلام بعقيدته وشرعيته وتاريخه وحضارته ولغته هو هوية مشتركة لكل مسلم، كما أن اللغة التي نتكلم بها ليست مجرد أداة تعبير ووسيلة تخاطب، وإنما هي: الفكر والذات والعنوان، بل ولها قداسة المقدس، التي أصبحت لسانه بعد أن نزل بها نبأ السماء العظيم. كما أن العقيدة التي ندين بها ليست مجرد أيديولوجية وإنما هي: العلم الكلي والشامل والمحيط، ووحى السماء، والميزان المستقيم، والحق المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهي منظومة القيم التي تمثل مرجعيتنا في السلوك، فهي ليست نسبية ولا مرحلية. (عمارة، 1999، ص: 46)، وإذا كان الإسلام قد جعل " عالميته " خيارا واختيارا لا قسر فيه ولا إكراه، عندما أعلن قرآنه الكريم ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾. (البقرة : 256).

وإذا كان هذا حال الإسلام الدين، فكذلك الحال مع الحضارة التي اصطبغت بصبغة الإسلام الدين. لأنها ثمرة لهذا الدين الذي لا إكراه فيه، فالتزوع إلى العالمية هنا قرين بالحرية والاختيار، فالعالمية هي ثمرة للتفاعل الحر والاختياري بين الحضارات المتعددة والمتمايزة، وتمثل القاسم المشترك والجامع لهذه الأمم و الحضارات، أي أمها المشترك الإنساني العام بينها، والذي لا ينفي تمايزها في الخصوصيات والمحليات.

العولمة و آثارها السلبية على الهوية الإسلامية:

إنَّ " العولمة " - التي يكثر عنها الحديث الآن- تعني شيئاً مغايراً لمعنى " العالمية "، وإن شئنا الدقة، فإنها القسر والقهر والإجبار على لون من الخصوصية، يعولمه القهر ليكون عالمياً. فالمنظومة العالمية، هي حاصل جمع خصوصيات حضارية تصبح عالمية بالتوافق والحرية والاختيار. بينما العولمة هي قسر وقهر يعولم خصوصية حضارية بعينها، عندما تحتاج خصوصيات المقيهورين. ففي العالمية يختار الإنسان، وفي العولمة لا خيار له، بل يشحن في القطار الذي صنعه ويقوده الأقوياء.

وهذا ما توصل إليه الجابري عندما قال: " إنَّ العولمة تعني نفسي للآخر وإحلال الاختراق الثقافي محل الصراع الأيديولوجي، كما تعني الهيمنة وفرض نمط واحد للاستهلاك والسلوك. " (الضرب، 1998، ص:7). حيث ميّز بين العولمة والعالمية. ففي حين أنَّ العولمة هي مرادف للهيمنة وما تحمله من دلالات وترتبته من نتائج، فإنَّ العالمية (Universalisation) تعني الانفتاح على الآخر وعلى الثقافات الأخرى في ظل الاحترام المتبادل والتعدد.

إنَّ الثقافة الغربية تخفي في أعماقها غايات من التوسع والغزو والسيطرة. بينما لم تكن الثقافة الإسلامية في يوم من الأيام ثقافة أمة غازية متطلعة إلى السيطرة، ولو كانت كذلك ما انتقلت عواصم الثقافة الإسلامية من المدينة ومكة، إلى دمشق وبغداد والقاهرة وفاس والأندلس وغيرها. (فاروق النبهان، 1991، ص:67).

إنَّ العولمة هي اجتياح الشمال للجنوب، اجتياح الحضارة الغربية ممثلة في النموذج الأمريكي للحضارات الأخرى، وهي التطبيق العملي لشعار " نهاية التاريخ "، الذي أرادوا به الادعاء بأنَّ النموذج الغربي الرأسمالي هو " القدر الأبدي " للبشرية جمعاء، وهو تطبيق يستخدم في عملية الاجتياح أسلوب " صراع الحضارات " الذي يعني في توازن القوى الراهن أنَّ تصرع الحضارة الغربية ما عداها من الحضارات.

فالعولمة تعني الهيمنة والعنصرية، وفرض ذوبان ثقافة الآخرين في الثقافة الغربية بصفة عامة، وثقافة أمريكا بصفة خاصة. (التركي، 2000، ص:12).

فالعملة ليست إفرازاً طبيعياً لمعطيات العصر الحديث كما يدّعي الغرب، بل هي سياسة غربية استعمارية جديدة لاستقطاب دول العالم النامي، والعالم الإسلامي على وجه الخصوص، وفرض النموذج الحضاري الغربي. وهي حتى لكثير من الغربيين ليست خيراً للعالم حتى في الجانب الاقتصادي الذي يبشّر به البعض، حيث نجد أنّ هانس بيتر مارتين في كتابه الشهير (فخ العملة) والذي ركّز على العملة الاقتصادية، يؤكّد أنّ العملة فخ كبير مليئ بالأكاذيب وهي في النهاية تزيد من عدد الفقراء. (مارتين، شومان، 1998، ص: 253).

بجانب ما تقدّم فإنّ العملة هي توجه أيديولوجي ليبرالي يركز على قوانين السوق الاقتصادي، والحرية المطلقة في انتقال البضائع والأموال والأشخاص والمعلومات، كما يعتمد هذا التوجه على فكرة الديمقراطية في الجانب السياسي، وعلى مفهوم الحرية والمساواة المطلقة في الجانب الاجتماعي والأخلاقي. وعموماً فإنّ للعملة وجوهاً متعدّدة، فهي عولمة سياسية، واقتصادية، وثقافية، وإعلامية، وعلمية، وتكنولوجية. والخطر في الأمر أنّه لا وجه من هذه الوجوه يستطيع أن يستقل بنفسه، فعلى سبيل المثال لا توجد عملة ثقافية من غير عولمة سياسية واقتصادية تمهّد لها السبيل وتفرضها فرضاً بالترهيب تارة، وبالترغيب تارة أخرى. فالعملة نمط سلوك، ومنهج حياة يراد إكراه العالم عليه، والاندماج فيه، والعمل به، والعيش في إطاره. (التوبجري، 2002، ص: 13).

ويرى بعض المثقفين العرب أنّ العملة على المستوى الثقافي تعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى، وتؤدّي إلى تبني أنموذج حضاري غربي يمهّد للهيمنة الكاملة بعد تفريغ الشعوب والدول من أي تراث حضاري.

ومن عبارات فوكوياما في هذا المعنى "إنّ شعوب العالم غير الغربية لا يمكن أن تدخل في النسيج الحضاري للغرب حتى وإن استهلكت البضائع الغربية، وشاهدت الأفلام الأمريكية، واستمعت إلى الموسيقى الغربية. فروح أي حضارة هي اللّغة والدين والقيم والعادات والتقاليد، وتتميّز حضارة الغرب بكونها وريثة الحضارات اليونانية والرومانية، وتدعو إلى فصل الدين عن الدولة، وإلى التعددية والحرية الفردية. إنّ التحديث والنمو الاقتصادي لا يحقّقان التغريب الثقافي في المجتمعات غير الغربية بل يؤدّيان إلى مزيد من التمسك بالثقافات الأصلية لتلك الشعوب. لذلك فإنّ الوقت قد حان لكي يتخلّى الغرب عن وهم العملة." (التوبجري، 1998، ص: 20).

ففي ظل هيمنة الغرب على المؤسسات الدولية - وخاصة مجلس الأمن الدولي، الذي أصبح شبيها بمجلس الأمن القومي الأمريكي- أخذ الغرب يقنّن منظومة قيمه في موائيق يسميها "دولية"، ليفرضها - باسم الأمم المتحدة- على العالم بإسره - صنع ذلك في مؤتمر السكان والتنمية - بالقاهرة سنة 1994م - وفي مؤتمر المرأة - في بكين سنة 1996م - وغيرها من المؤتمرات مثل مؤتمر نيروبي عام 1985م، مؤتمر القاهرة عام 1994م، ومؤتمر اسطنبول عام 1996م، ومؤتمر نيويورك عام 1999م، ثم نيويورك أيضا عام 2000م. ومحور هذه المؤتمرات يدور حول الأسرة والمرأة والطفل، مركزا على الحقوق الجنسية، والحق في الإنجاب والإجهاض، والشذوذ، وقضية المساواة بين الرجال والنساء، والمساواة في الميراث، وغيرها. وكل هذا من منظور الثقافة الغربية العلمانية المادية الإباحية. (علي محمد، 2001، ص:27).

وكان من أبرز توصيات تلك المؤتمرات :

- إقرار الحرية الجنسية، وإباحة العلاقات الجنسية خارج حدود الزواج.
 - فرض مفهوم المساواة الشكلي بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات.
 - الاتجاه إلى إعادة النظر في قوانين الأسرة في العالم الإسلامي.
- وكنموذج لهذه الحقيقة، فإنّ " الفصل السابع " - الفقرات 1- 5- من وثيقة مؤتمر السكان والتنمية الدولي، المنعقد بالقاهرة - من 5 إلى 15 سبتمبر سنة 1994 م - في فقراته من 1 إلى 5، يتحدّث عن الإباحية الجنسية فيقول: " إنّها حالة الرفاهية البدنية والعقلية والاجتماعية الكاملة، المنطوية على أن يكون الأفراد- (لاحظ تعبير الأفراد، أي ليس للأزواج فقط)، من جميع الأعمار، أزواجا وأفرادا (في الإطار المثلي بين الشواذ والشاذات)، فتيانا وفتيات، مراهقين ومراهقات (الأمر الذي تجاوز احترام الأسرة وحرمتها، كونه جعل الجنس، والحمل، والإجهاض، والولادة حق للجميع)، قادرين على التمتع بحياة جنسية مرضية ومأمونة (لاحظ دونما اشتراط الشرعية والحلال في المعاشرات الجنسية)، هي كالغذاء للجميع، ينبغي أن تسعى جميع البلدان لتوفيره في أسرع وقت ممكن، في موعد لا يتجاوز عام 2015. " أي أنّه أكثر من مباح، فالسعي لتحقيقه واجب على جميع البلدان. هذا مثال ونموذج لعولمة منظومة القيم الغربية. وإذا ما انتقلنا من العقائد والقيم التي هي أصل الهوية، إلى اللسان واللغة التي هي أداة التفاهم والتواصل، وهي وعاء الفكر وقالبه الحي، وما نراه اليوم من طغيان الثقافة الغربية، حيث تشكّل اللغة نسبة عالية من

الإسهام في نقلها. ولا أدل على ذلك من أن (88%) من معطيات الأنترنت باللغة الإنجليزية، و(9%) بالألمانية، و(2%) بالفرنسية، و(1%) يوزع على باقي اللغات. (التميمي، 2001، ص: 111).

وهذا ما دعا الرئيس الفرنسي جاك شيراك إلى الدعوة إلى إقامة تحالف بين الدول التي لغاتها ذات أصل لاتيني للتصدي لهيمنة اللغة الإنجليزية، ولهذا السبب أنشئت الوكالة الفرنكفونية، والمنظمة الدولية للفرانكفونية. (الناصر، دت، ص: 123).

وتشير إحصاءات منظمة اليونسكو عن الوطن العربي إلى أن شبكات التلفزيون العربية تستورد ما بين ثلث إجمالي البث كما في سوريا ومصر، ونصف هذا الإجمالي كما في تونس والجزائر، أما في لبنان فإن البرامج الأجنبية تزيد على نصف إجمالي المواد المبتة إذ تبلغ (58.2%). (الدجاني، 1998، ص 335). ومعلوم أثر هذه البرامج على العقائد والقيم والأخلاق والعادات واللغة. علما أن العرب هم أكثر الشعوب مشاهدة للتلفاز. (الردادي، 1421هـ، ص: 7).

وفي مجال السيادة الوطنية، نجد أن العولمة تهاجم دولة ذات سيادة حتى دون إذن من الأمم المتحدة لشبهة أسلحة الدمار الشامل، وتترك دولة قريبة منها تمتلك أسلحة الدمار الشامل وتحتل أرض غيرها مخالفة قرارات الأمم المتحدة.

وفي مجال السيادة الوطنية، نجد أن العولمة تهاجم دولة ذات سيادة حتى دون إذن من الأمم المتحدة لشبهة أسلحة الدمار الشامل، وتترك دولة قريبة منها تمتلك أسلحة الدمار الشامل وتحتل أرض غيرها مخالفة قرارات الأمم المتحدة.

وتعتبر المنظمات الفلسطينية المقاومة للاحتلال إرهابية، والمحتل مدافع عن نفسه، والجماعات الإسلامية في أفغانستان المقاومة للاحتلال الأمريكي وحكومته إرهابية، بينما نفس الوضع كان إبان الاحتلال السوفيتي ولكن تلك الجماعات كانت مقاومة مشروعة مدعومة، مما يعني وجود احتلال حاد في موازين العالم تحت إمرة الحضارة الغربية الصليبية الصهيونية.

وترفض أوروبا انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي بسبب هويتها الإسلامية ليس إلا، وكما قال الرئيس أوزال في سنة 1992م: " سجل تركيا بالنسبة لحقوق الإنسان سبب ملقّق لعدم قبول طلب انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي، السبب الرئيسي هو أننا مسلمون وهم مسيحيون. " (هنتنغتون، 1999، ص: 433).

وهذا ما حدا "بتوم فريدمان" للقول: "نحن أمام معارك سياسية وحضارية فظيعة، والولايات المتحدة قوة مجنونة، نحن قوة ثورية خطيرة، وأولئك الذين يخشوننا على حق." (فريدمان، 1993، ص: 28).

أما في مجال حقوق الإنسان، فالإنسان في المفهوم الغربي، هو إنسانه الأبيض، وليس مطلق الإنسان. والحقوق – بمفاهيمها الغربية – هي وقف على هذا الإنسان الغربي. أما إنساننا فله الحرمان من هذه الحقوق، اللهم إلا إذا كان المقصد هو التدخل في شؤوننا الداخلية، أي انتقاص أو إلغاء حقوقنا في السيادة الوطنية والقومية، باسم المعايير والمفاهيم الغربية لحقوق الإنسان، واختيار القانون الذي يحكم به الإنسان، حق من حقوق الإنسان. اللهم إذا كان هذا الإنسان مسلماً، وكان هذا القانون هو الشريعة الإسلامية، فإن الأمر يصبح "أصولية" تمثل الخطر المهدد للعالم، والتطرف، والتشدد، والرجعية، والظلامية، والإرهاب.

بل حتى في الجانب الاقتصادي فالإنسان الغربي الذي لا يشكل سوى نسبة ضئيلة من سكان الكرة الأرضية (20%) يستهلك ما يزيد على (80%) من مواردها الطبيعية. (المسيري، 2001، ص: 217). والسيادة – في الدول القطرية والوطنية والقومية – هي حق من حقوق الإنسان، اللهم إلا إذا كانت هذه الدول عربية أو إسلامية، فإن انتقاص سيادتها يصبح جزءاً من مقتضيات العولمة.

وفي مثل ذلك "حق التسلح" لحماية الأمن الوطني والقومي، هو حق سيادي من حقوق الدول، اللهم إلا إذا كانت عربية أو إسلامية، فإن نزع سلاحها، أو تقييده يصبح "حقاً" لقوى الهيمنة والعولمة.

للأسف إن الغرب حريص على فرض قيمه الاجتماعية والثقافية وعولمتها والتي تمثل أسوأ ما عنده، بينما لا يسعى إلى عولمة العلم والتقدم، حيث يجب الاحتفاظ به. فهناك استنتاجات تقول بأن تطبيق اتفاقيات منظمة التجارة العالمية (GATT) تفضي إلى عكسها، وعلى سبيل المثال القول: أن العولمة تؤدي إلى تعميق التبعية الثقافية للغرب، وبالتالي التبعية التكنولوجية، وحقيقة الأمر أن تطبيق اتفاقية الجوانب المتصلة بالتجارة من حقوق الملكية الفكرية (تريبس – Trips) قد أدخل حماية حقوق الملكية الفكرية ضمن حرية التجارة وكفال الحماية المطلقة لحقوق منتجي الثقافة والمعارف التكنولوجية، ومن ثم فإنه يفضي إلى احتكار الغرب للثقافة والمعرفة التكنولوجية وحجبها عن البلدان الفقيرة وعن الفقراء الذين لا يستطيعون دفع مقابل الوصول إلى الثقافة والمعرفة، وإلى عدم قدرة الحكومات العربية في البلدان الأقل نمواً أو التامة الوفاء بالتزاماتها لضمان حقوق الإنسان

الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتفتقد البلدان الأقل نمواً بالذات، وسائل التنمية وتراجع المكاسب الوطنية الضئيلة أصلاً في مجال التنمية وحقوق الإنسان.

إنَّ مما يزيد خطورة العولمة ضعف العالم الإسلامي وهزيمته أمام الغرب، وهذا ما يزيد اختراق العولمة الثقافية للهوية، كما قال ابن خلدون " المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه وسائر أحواله وعوائده. " (ابن خلدون، د.ت، ص:147).

كما أنَّ مما يزيد خطورة العولمة ذراعها الإعلامي الخاضع للسيطرة الصهيونية والتي تمسك بخيوطها. تسير هذه القوة في السيطرة مع القوة الغاشمة العسكرية في فرض العولمة على الآخرين. فوظيفة المنظومة الإعلامية هي أن تتسلل وتتلهى وتعلم وترسخ القيم والمفاهيم والمعتقدات وأنماط السلوك الأمريكي على الآخرين، كما يرى أحد الخبراء الأمريكيين. ولتحقيق ذلك صارت ميزانية الإعلام موازية تماماً لميزانية الدفاع في بعض الدول، فإحصاءات عام 1986م تقول إنه بلغ رقم اقتصاد الإعلام في الغرب والاتصالات مبلغ (1175) بليون دولار تقريباً، منها (505) بلايين للولايات المتحدة الأمريكية، و(267) بليوناً للجماعة الأوروبية، و(253) بليوناً لليابان، و(150) بليوناً فقط للآخرين في العالم. هذه الميزانيات الضخمة للإعلام في الشمال جعلته يتحكم بقوة في الإعلام المتدفق، في اتجاه الجنوب، الأمر الذي أحدث خللاً في المنظومة الإعلامية. وقد فشلت جميع الجهود والمبادرات التي بذلت في إطار الأمم المتحدة لوضع أسس لقيام نظام إعلامي جديد يحقق التوازن بين الشمال والجنوب. (المير، 2000، ص:130).

سبل مقاومة الآثار السلبية للعولمة على الهوية الإسلامية:

أما عن سبل مقاومة الآثار السلبية للعولمة على الهوية الإسلامية فيمكن أن تأخذ أبعاداً متنوعة:

أولها: تعزيز الهوية بأقوى عناصرها، وهو العودة إلى الإسلام، وتربية الأمة عليه بعقيدته القائمة على توحيد الله سبحانه، والتي تجعل المسلم في عزّة معنوية عالية، ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾. (المنافقون:8). وبشريعته السمحة وأخلاقه وقيمه الروحية، وتقوية الصلة بالله سبحانه وتعالى واليقين بنصره. فالهزيمة الحقيقية هي الهزيمة النفسية من الداخل، حيث يتشرب المهزم كل ما يأتيه من المنتصر، أما إذا عززت الهوية ولم تستسلم من الداخل فإنها تستعصي ولا تقبل الذوبان.

ثانيها: العناية باللغة العربية في وسائل الإعلام ومناهج التعليم وتسهيل تدريسها وتحييها للطلاب. ومن العناية باللغة العربية تفعيل التعريب والترجمة والتقليص من التعلق باللغات الأخرى إلا في حدود الحاجة اللازمة. ثالثها: إبراز إيجابيات الإسلام وعالميته وعدالته وحضارته وثقافته وتاريخه للمسلمين قبل غيرهم، ليستلهموا أمجادهم ويعتزوا بهويتهم. وإنعاش قيم التفوق الثقافي والفكري والحضاري، التي عند المسلمين، كالثقوى والعدل وحقوق الإنسان، بدلاً من القيم الغربية العلمانية.

رابعها: تصحيح صورة الإسلام في نظر الغرب، وذلك بتنفيذ المعلومات غير الصحيحة عن الإسلام، ومحاصرة المواد الثقافية والإعلامية التي تسيئ إلى الإسلام، وتقديم صورة مغايرة للإسلام تحل محل الصورة المشوهة عنه. يضاف إلى ذلك الاستفادة من منتديات حوار الحضارات لشرح الفكر الإسلامي، وتقديم الإسلام كبديل حضاري لكل البشرية. فالأمة الإسلامية تملك أعظم مشروع حضاري، إنها تملك الوحي الإلهي المعصوم. ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾. (آل عمران: 110). خامسها: العمل على نهوض الأمة في شتى الميادين، دينياً وثقافياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً وتقنياً، ومحاربة أسباب التخلف والفساد، فإن من سنن الله سبحانه وتعالى التغيير، ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. (الرعد: 11).

سادسها: مواجهة مساوئ العولمة بالتعليم والتدريب والتثقيف والتحصين ورفع الكفاءة وزيادة الإنتاج ومحاربة الجهل وخفض معدلات الأمية المرتفعة عند المسلمين.

سابعها: تقليص الخلافات بين المسلمين حكومات وشعوب وجماعات بالاعتصام بكتاب الله عز وجل ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾. (آل عمران: 103).

ثامنها: التنسيق والتعاون بصورة متكاملة في وزارات التربية والتعليم العالي، والثقافة والإعلام، والأوقاف والشؤون الإسلامية والعدل، للمحافظة على الهوية الإسلامية من أي مؤثرات سلبية عليها.

تاسعها: أن تقوم وسائل الإعلام بواجباتها في الحفاظ على الهوية ودعمها، فضلاً عن استيراد البرامج التي تخدم الهوية دون نظر أو تمحيص. كما أن على الدول والعلماء وقادة الرأي ورجال الأعمال، الضغط على وسائل الإعلام الخاصة، كل بما يستطيع لمراعاة هوية الأمة وقيمها.

عاشرها: تنشيط التفاعل والحوار الثقافي العربي مع ثقافات الأمم الأخرى، وإثراء ثقافتنا العربية الإسلامية بما نراه ينفعنا ولا يضرنا من الثقافات الكونية الأخرى، وفي الوقت نفسه نعرف تلك الثقافات العالمية بما لنا من تراث وتقاليد وقيم اجتماعية عريقة.

هذه بعض الأفكار وغيرها كثير في سبيل مواجهة العولمة، التي فرضت علينا واقعا ليس من اختيارنا، لكنها لا تستطيع منعنا من العمل. فثقافتنا وهويتنا الإسلامية قابلة للنمو أكثر من الذوبان، لذا نؤمن بالمتفاعل والتبادل الذي يتيح لثقافتنا فرصة الانتشار أكثر من التبعية.

بل إن الإسلام بعقائده الفطرية، وشريعته العادلة القائمة على المساواة، يتجه نحو العالمية منذ نزوله، ويبحث على التعايش والسلم، وعایش فعلا في تاريخه مختلف الديانات وتسامح معها تسامحا واضحا بشهادة المؤرخين المنصفين، كما أنه مؤهل بتعاليمه الأخلاقية أن يشارك في وضع أخلاق جديدة لهذه العولمة المنفلتة لحد الآن، وهو يعترف بالقيم المشتركة بين الحضارات.

وقد تنبأ بانهايار الحضارة الغربية كثير من فلاسفة الغرب، ومنهم الفيلسوف الألماني "أسبنجلر أزوالد" في كتابه "تدهور الحضارة الغربية"، كما تنبأ بانهايارها المفكر والفيلسوف الفرنسي "روجي جارودي" في كتابه "وعود الإسلام". وربما يأخذ الانهيار زمناً طويلاً لكنه رهين بظهور حضارة بديلة، ولا توجد حضارة مؤهلة لذلك غير حضارة الإسلام.

من هنا يدعو "هانتجتون" إلى الاستعداد لمواجهة الخطر الإسلامي وإلى ضرب مرتكزات القوة في الصحوة الإسلامية حتى لا يقوى الإسلام على منازلة الغرب. (بشير إمام، 2000، ص: 193).

وبما أن الإسلام يتمتع بعناصر قوة واضحة كعقيدة التوحيد، وبكونه دين علم وأصالة وتجديد، فقد وقف وسيقف سداً منيعاً أمام تيار العلمانية والاستشراق، والتنصير والتغريب والعولمة، التي تتكاتف كلها لمحاربتها.

قائمة المراجع:

- 1- إبراهيم بن ناصر الناصر، العولمة مقاومة واستثمار، مجلة البيان، العدد 167، السنة 6.
- 2- إسماعيل علي محمد، 2001، العولمة الثقافية وموقف الإسلام منها، دار الكلمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

- 3- الجابري، محمد عابد، 1997، قضايا في الفكر المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- 4- الشريف الجرجاني، 1987، التعريفات، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى.
- 5- توم فريدمان، 1993، العولمة وأثرها على اقتصاد الدول، نقلا عن جريدة الشرق الأوسط بتاريخ 1993/3/2 م.
- 6- صامويل هنتنجتون، 1999، صدام الحضارات، إعادة صناعة النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب وتقديم د. صلاح قنصوة، الطبعة الثانية.
- 7- عائض الرادي، 1421هـ، ضياع الهوية في الفضائيات العربية، كتيب المجلة العربية، العدد السابع والثلاثون.
- 8- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، د.ت.
- 9- عبد العزيز بن عثمان التويجري، 2002، تأملات في قضايا العولمة، دار الشروق، القاهرة.
- 10- عبد الله التركي، 2000، الحوار المبتغى في ظل العولمة، مجلة الرابطة، العدد 425.
- 11- عبد الوهاب المسيري، 2001، العالم من منظور غربي، منشورات دار الهلال.
- 12- عبدالعزيز بن عثمان التويجري، 1998، مجلة الإسلام اليوم، العدد 15، السنة 18.
- 13- غارودي روجيه، 1998، العولمة المزعومة... الواقع، الجذور، البدائل، تعريب محمد السبيطلي، دار الشوكاني للنشر، صنعاء.
- 14- محمد بن سعد التميمي، 2001، العولمة وقضية الهوية الثقافية في ظل الثقافة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى.
- 15- محمد عمارة، 1999، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، فبراير.
- 16- محمد فاروق النبهان، 1991، قابلية الثقافة الإسلامية للأخذ والعطاء، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مكناس.
- 17- محمود سمير المنير، 2000، العولمة وعالم بلا هوية، دار الكلمة للنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى.

- 18- موسى الضير، 1998، العولمة- مفهومها- بعض الملامح، مجلة المعلومات الدولية، السنة السادسة، عدد 58، (خريف)، سوريا.
- 19- نبيل الدجاني، 1998، العرب والعولمة، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية.
- 20- هانس بيتر مارتين، هارولد شومان، 1998، فخ العولمة، ترجمة: عدنان عباس علي، مراجعة وتقديم: رمزي زكي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
- 22- زكريا بشير إمام، 2000، في مواجهة العولمة، مركز قاسم للمعلومات، الخرطوم، ط1.